المجلس الخامس والعشرون

الوقف على الأرامل واليتامى

المجلس الخامس والعشرون

الوقف على الأرامل واليتامى

دين الإسلام هو دين التكافل والرحمة والإحسان، ونجد في شريعتنا الكريمة الغراء الْتفاتا إلى الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام، وحثّا على رعايتهم والإحسان إليهم، بل إنه ﷺ جعل منزلة كافل اليتيم منزلة عظيمة، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئا(١) كما أنه ﷺ حرّج حق اليتيم والمرأة(٢) ورغّب في كفالة الأرامل وقال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»(٣).

وهكذا فإن الإسلام يرعى الضعفاء والمساكين بل إن أول صنفين من أصناف الزكاة هما (الفقراء والمساكين) كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

ولقد سعى الصحابة ث في هذا المضمار وتنافسوا فيه فصاروا يرعون الأيتام والأرامل والمساكين ويرأفون بهم.

روى البخاري في صحيحه قصة حادثة الإفك التي قُذفت فيها الصديقة عائشة ﵂ بما برأها الله ﷻ منه، قالت عائشة ﵂: كان أبو بكر الصديق ﵁ ينفق على مِسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره، وكان مسطح ممن تكلّم في عائشة -فقال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدًا- بعد الذي قال لعائشة ما قال -فأنزل

---

(١) البخاري (٦٠٠٥)، مسلم (٢٩٨٣).

(٢) صحيح ابن ماجة (٢٩٨٢) وحسنه الألباني عن أبي هريرة.

(٣) البخاري (٥٣٥٣)، مسلم (٢٩٨٢).

الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر الصديق ﷺ: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا(١).

وهنا ملحظ لطيف وهو أن الإسلام حثّ وحضّ على العناية بالأقارب لاسيما المحتاجين منهم، ورغب في ذلك لأن الأقربين أولى بالمعروف والإحسان والبر، كما قال ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فقدّم الله ذكر الوالدين والأقربين لأن الإنسان إذا أحسن إليهم فإنه ينال الأجر من جهتين، من جهة القربى وصلة الرحم، والجهة الأخرى هي باب الصدقة العامة.

وحدّث أحدهم بقصة عجيبة حصلت في هذا الباب وهي عن رجل كثير الإحسان والإنفاق والصدقة ويتلّمس أوجه المعروف والخير، ويتصدّق على هذا وذاك، وفي يوم من الأيام أخبره أحد أصحابه عن حال امرأة ضعيفة مسكينة محتاجة ولكنها متعففة، فطلب منه رقم حسابها لأجل أن يودع فيه ما تيسر، فلمّا ذهب إلى الصرّاف لأجل أن يحوّل المبلغ إليها فُوجئ وصُدم أن هذه المرأة هي أخته!! فأثّر فيه هذا الموقف تأثيرًا كبيرًا وقال: كيف غفلت عن أقرب الناس إليّ والْتفتُ إلى الأبعدين؟! والله المستعان.

وإن تاريخنا الإسلامي حافل بعناية المسلمين بالأيتام والأرامل والمساكين والوقف عليهم والوقوف معهم، وعدّ بعضهم الصحابي الجليل الزبير بن العوام ﷺ أول من أوقف وقفًا لصالح الأرامل والمطلقات من بناته(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، مسلم (٢٧٧٠).

(٢) نقلا عن: سلامة البلوي، رعاية الفئات الخاصة، ص ٢٠.

وكان الفاتح المؤَفَّق صلاح الدين الأيوبي ﷺ من أكثر الحُكّام المسلمين الذين ساهموا في الوقف على الأرامل والأيتام وذوي الاحتياجات الخاصة، فقد كانت قرية (نسترو) بمصر[١] مصروفة على الأيتام وذوي الاحتياجات [٢].

ولم يزل أهل الإسلام على مرّ العصور يعتنون بتوفير حاجة المسكن والمأكل والملبس لمن لا يستطيعه من الفقراء والأيتام والأرامل ونحوهم.

ومما عرف في تاريخ المسلمين (التكايا) وهي مباني ذات طراز معماري خاصّ مخصصة لمن لا يستطيع التكسب من العجائز وكبار السن والأرامل والأيتام وهي مكونة من حجرات ومسجد صغير ودورات مياه ويعدّ فيها للنزلاء وجبات الطعام اليومية وتكون داخل البلدان[٣].

ولا شك أن الوقف على هذه الفئة أفضل وأولى من الصدقة المقطوعة أو الإنفاق بين الفينة والأخرى، والوقف هو الأفضل والأحكم والأضبط للتكافل الاجتماعي من المنظور الاستراتيجي، لأنه يحقّق تغطية أسباب الحاجة، ومحو آثارها ويغنيهم عن ذُلّ السؤال والحاجة.

فرعاية الأيتام لم تكن صفحات تُسطّر بها الكتب العلمية والفقهية بل كانت واقعًا يتنافس على توفيره العلماء والسلاطين وأهل الخير والبرّ، لتوفير حياة كريمة للأيتام والمحتاجين ليعيشوا مثل باقي أفراد مجتمعهم[٤] فإن مات أبوه فإن المجتمع كله يسدّ مسدّ الوالد ويحنو على اليتيم ويرحم المسكين امتثالا واستجابة لتوجيهات الشرع الحكيم قال

---

(١) نَسْتَرُو: بالفتح ثم السكون، وتاء مثناة من فوقها، وراء مضمومة، وواو ساكنة: جزيرة بين دمياط والإسكندرية ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموى (٥/٢٨٤).

(٢) دور الوقف في تأهيل الأيتام اجتماعيا د. سامي الصلاحات ص ٨.

(٣) الوقف والعمران الإسلامي، د. نوبي محمد حسن ص ١٦٣ وما بعدها.

(٤) ينظر: مقال من روائع أوقاف المسلمين لعيسى القدومي.

ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] قال الإمام الطبري ﷺ: وذلك أن تتصرفوا فيه له بالتثمير والإصلاح والحيطة.أ.هـ(١).

ولله درّ القائل:

انظرْ إلى وجه اليتيمِ، ولا تكنْ ... إلا صديقًا لليتيمِ حميما

وارسمْ حروفَ العطف حَوْل جبينهِ ... فالعَطْفُ يُمكن أنْ يُرى مرسوما

وامسح بكفِّكَ رأسه، سترى على ... كفَّيكَ زَهْرًا بالشَّذَا مَفْعُوما(٢)

وبفضل الله ﷻ انتشرت الجمعيات الخيرية المهتمة بالأيتام في بلاد المسلمين وحظيت بعناية خاصّة من الحكام والمسؤولين ورجال الأعمال وعامة الناس وأوقف عليها المبالغ الكبيرة وأقيمت الأوقاف الضخمة كي تكون مدرّة عليها وعلى برامجها وأنشطتها، بل إن جمعية واحدة من هذه الجمعيات بلغ ما أنفقته على الأيتام خلال عشر سنوات ستمائة مليون ريال، وبلغ ريع أوقافها السنوي ثلاثة عشر مليون ريال(٣).

كما نلحظ –ولله الحمد– رغبة الكثير من المتبرعين في كفالة الأيتام، ودوام السؤال عنهم، وهذا يدلّ على حرص المسلمين على رعاية اليتيم كسبًا للأجر من الله ﷻ، ورغبة في أن ينالوا رفقة الرسول ﷺ في الجنة، والتي ليست بعدها رفقة ولا نعمة، نسأل الله ألا يحرمنا فضله.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٧/٤٤٤).

(٢) الأبيات للدكتور عبد الرحمن العشماوي وله دواوين مطبوعة.

(٣) كما جاء في تقرير الجمعية الخيرية لرعاية الأيتام (إنسان) الجمعية الخيرية لرعاية الأيتام (إنسان) عام ٢٠١٠م للاستزادة:

www.ensan.org.sa

فما أحوج أيتام المسلمين في أيامنا هذه للرّعاية والعناية وتربيتهم تربية إيمانية صالحة، وهذا لا يتحقق إلا بتوفير المؤسسات التي ترعاهم وتعتني بهم وتكون قائمة على أوقاف خيرية يصرف من ريعها وغلّتها على هذا الباب العظيم من أبواب الخير والإحسان.

وليبشر من سعى في هذا المعروف وشارك في كفالة الأيتام بالبركة في الرزق والسعة فيه والرضا والأنس بطاعة الله ﷻ:

قال الشاعر:

يا كافلَ الأيتامِ، كأسُكَ أصبحتْ ... مَلأَى، وصار مزاجُها تسنيمًا

ولسوف تُبصر في فؤادكَ واحةً ... للحبِّ، تجعل نَبْضَه تنغيمًا

ولسوف تبصر ألفَ ألفِ خميلةٍ ... تُهديك من زَهْر الحياةِ شَميمًا

ولسوف تُسعدكَ الرياضُ بنشرها ... وتريكَ وجهًا للحنانِ وسيمًا

أبشرْ بصحبةِ خيرِ مَنْ وَطىءَ الثرى ... في جَنَّةٍ كمُلَتْ رضًا ونَعيمًا

حَسْبُ اليتيم سعادةً أنَّ الذي ... نشرَ الهُدَى في الناسِ عاشَ يَتيمًا[1]

(١) الأبيات للدكتور عبد الرحمن العشماوي.